

(١)

تحويل القبلة دروس وعبر

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، **وبعد :**

فقد أظننا شهر شعبان المبارك الذي أمرنا أن نتلمس من نجاته وبركاته ما يذكرنا بالله إذا نسينا ، وينبها إذا غفلنا ، ويحثنا على فعل الطاعات والخيرات ، واجتناب الذنوب والسيئات حتى نستعد لأعظم نجات الخير في شهر رمضان المعظم .
ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يولي شهر شعبان اهتماماً كبيراً ، فكان يخصه بمزيد من العبادة والطاعة ، ويكثر فيه من الصيام ، ولا أدل على ذلك من قول السيدة عائشة (رضي الله عنها) : (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَصُومُ حَتَّى تَقُولَ: لَا يُفْطِرُ ، وَيُفْطِرُ حَتَّى تَقُولَ: لَا يَصُومُ ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ) ، فكان كثرة صيامه (صلى الله عليه وسلم) أشبه ما يكون بالتدرب على استعادة الهمة واستحضرها في شعبان ؛ تهيئة وتوطئة لصيام شهر رمضان .

فضلاً عن أن شهر شعبان هو الشهر الذي ترفع فيه أعمال العباد إلى رب العالمين ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يحب أن يرفع عمله وهو صائم ، فعن أسامة بن زيد (رضي الله عنه) قال : قلت : يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ ، قال : (ذَلِكَ شَهْرٌ يَعْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى

(٢)

رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ).

ومما لا شك فيه أن العطايا الربانية ، والنفحات الإلهية للأمة المحمدية في شهر شعبان أكثر من أن تحصى أو تعد ، وإن من الأحداث العظيمة التي نحتفل بها في شهر شعبان حدث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، ذلكم الحدث الذي يعدّ من أبرز مظاهر التكريم الإلهي للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، حيث استجاب الحق (سبحانه وتعالى) فيه لرغبة حبيبه ومصطفاه (صلى الله عليه وسلم) ، وحقق له أمله ورجاءه بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة قبله أبيه إبراهيم (عليه السلام) .

والمتدبر بعين الاعتبار والعظة في حادث تحويل القبلة يقف على الكثير من الدروس المستفادة من هذا التكريم الإلهي للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومن أهم هذه الدروس :

الاستجابة لله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وتعني امتثال الأوامر واجتناب النواهي على كل حال في العسر واليسر ، والمنشط والمكره (أي : فيما تُقبل إليه النفس وتميل أو فيما تكرهه وتتناقل عنه) ، فلقد كان المسجد الأقصى قبله النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يرجو أن تكون قبلته قبل المسجد الحرام ، فَتَطَّلَعَ (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء ، واشتد شوقاً إلى نزول الوحي عليه بالتوجه إلى بيت الله الحرام ، لأنه قبله أبيه إبراهيم (عليه السلام) فاستجاب الله (عز وجل) لرغبة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وأمره أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة المشرفة ، ونزل قول الله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}.

وعلى الرغم من أن الأمر بتحويل القبلة كان من الأمور التي يصعب الإيمان بها

إلا على من وفقهم الله ، وشرح صدورهم للحق ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } ، إلا أن الصحابة (رضوان الله عليهم) قد ضربوا أروع الأمثلة في سرعة الاستجابة لله (عز وجل) ولرسوله (صلى الله عليه وسلم)، فبمجرد صدور الأمر الإلهي بالتحول في الصلاة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام استجاب المؤمنون لهذا الأمر وتحولوا وهم في صلاتهم ، فما انتظروا حتى تنتهي الصلاة ، وما ترددوا في امتثال الأمر ، وإنما تحولوا في الحال وهم في هيئة الركوع من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، فعن ابنِ عمرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قال: (بَيْنَمَا النَّاسُ يَقْبَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ).

وهكذا القلوب الطاهرة يَكْفِيهَا أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ اللَّهِ فَتَسْتَجِيبُ وَتَمْتَلِ وَتَلْبِي دُونَ أَدْنَى تَرْدَدٍ أَوْ تَسْوِيفٍ ، قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} ، أي إنما يستجيب لأمر الله (عز وجل) وبلبي النداء ، وينقاد للأمر من سمع بقلبه سماع فهم وتطبيق ، وهم أصحاب القلوب الحية ، أما الذين ماتت قلوبهم فمرجعهم إلى الله (عز وجل) يوم القيامة .

ومنها : عظيم مكانة النبي (صلى الله عليه وسلم) ورفعته شأنه ، وبيان منزلته عند ربه ، وهو ما يتجلى في قول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) : {فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} ، تماما كما قال له : {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} ، وليس ذلك غريباً ولا مستغرباً ، ألم يقل الحق سبحانه على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم) : {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ، ويقول سبحانه:

(٤)

{مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}، ويقول (عز وجل) : {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا}، ويقول سبحانه : {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلية : **وسطية الأمة** ، فلقد أصل هذا الحدث العظيم مبدأ وسطية هذه الأمة ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، فوسطية الأمة وسطية شاملة جامعة ، وسطية في الاعتقاد والتصوير ، ووسطية في الشعائر والتعبد ، ووسطية في الأخلاق والسلوك ، وفي النظم والتشريع ، وفي الأفكار والمشاعر ، بعيداً عن الغلو والتقصير ، أو الإفراط والتفريط.

ثم إن شهادة أمة النبي (صلى الله عليه وسلم) على سائر الأمم على قدر ما ترمز إليه من التكريم فإنها تقتضي أن تكون الأمة أهلاً لهذه الشهادة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ. فَيَسْأَلُ أُمَّتَهُ هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ : مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ : مَنْ شَهِدْتُكَ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيَجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ) ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} ، وقد قال سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) : (أَقْرَأُ عَلَيَّ الْقُرْآنَ) قال ابن مسعود : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟! قَالَ : (إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي) فَفَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ ، حَتَّى جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} قَالَ (صلى الله عليه وسلم) :

(٥)

(حَسْبُكَ الْآنَ)، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ .

فحري بنا أن نعود إلى الوسطية التي شرفنا الله (عز وجل) بها ، وأن نكون حقاً وسطيين في جميع شئوننا دون إفراط أو تفريط ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} ، ويقول (عز وجل) : {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} ، ويقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله) : " ما أمر الله (عز وجل) في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من إحدى الجهتين لا يبالي أيهما أصاب الإفراط أو التفريط " ، ومن هنا يجب أن نكون مع التيسير والسماحة ، لا مع التسيب والتفريط ، ومع الالتزام الديني والقيمي والأخلاقي دون أي تشدد أو تطرف .

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلة : **بيان مكانة الصلاة وأهميتها** ، حيث ربطها القرآن الكريم بحادثتين هامتين في تاريخ الإسلام ، وهما : حادثة الإسراء والمعراج ، حيث فرضت الصلاة من فوق سبع سموات ، وحادثة تحويل القبلة ، وفي هذه الحادثة سماها القرآن الكريم إيماناً في قوله تعالى : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} ، حيث ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية : أنها نزلت في الذين ماتوا من الصحابة قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة ، فخشى إخوانهم على صلاتهم تجاه بيت المقدس ، فسألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فطمأنهم الله بهذه الآية ، فعن البراء بن عازب (رضي الله عنه) قال : (وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رَجُلٌ قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا تَقُولُ فِيهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} .

ولعل في ذلك إشارة إلى مكانة الصلاة من الإيمان ، فهي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن أضعافها فهو على خطر عظيم ، وهي الصلة بين العبد وربّه ، من

(٦)

أجل ذلك دعا إليها الإسلام ورغب فيها ، وحثَّ على إقامتها والمحافظة عليها ، ورتب على أدائها الأجر العظيم ، يقول سبحانه : {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} ، وقد وَعَدَ اللهُ تعالى المحافظين على صلاتهم بالفردوس الأعلى ، يقول سبحانه : {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ، والصلاة تطهر القلوب ، وتغسل الذنوب ، وتمحو الخطايا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يَبْقَى مِنْ ذَنْبِهِ شَيْءٌ ؟) . قَالَوا : لَا يَبْقَى مِنْ ذَنْبِهِ شَيْءٌ . قَالَ : فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

من الدروس والعبر المستفادة من تحويل القبلة ، الرباط الوثيق بين المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد الأقصى بالقدس ، وإظهار العلاقة القوية بينهما ، حيث جعلهما الله سبحانه وتعالى شقيقين ، فالمسجد الحرام هو أول مسجد وضع لعبادة الله (عز وجل) في الأرض ، والمسجد الأقصى هو ثاني المساجد ، فعن أبي ذرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ ؟ قَالَ : (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ) ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى) ، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : (أَرْبَعُونَ سَنَةً وَأَيُّنَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ) .

(٧)

لقد ربط تحويل القبلة بين المسجدين كما ربط الإسراء والمعراج بينهما ، فقال سبحانه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، ومن ثم يجب حمايتهما معاً ، وعدم التفريط في أي منهما ، فهما أمانة في أعناق المسلمين جميعاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولن تستطيع الأمة أن تحافظ على مقدساتها إلا بالاعتماد على الله (عز وجل) وتقواه أولاً ، ثم بوحدة صفها ، وبامتلاك أسباب القوة من خلال العلم والعمل والإتقان والإنتاج ، حتى تمتلك قوتها وغذاءها وكساءها ودواءها وسلاحها ، فتمتلك كلمتها وحريتها وإرادتها ، فالأمم التي لا تملك مقومات حياتها لا تملك كلمتها ولا إرادتها ولا استقلال قرارها .

على أن هناك أمراً هاماً يجب أن نتنبه له ، وهو أن التحول ليس مجرد تحول مكاني إنما هو اختبار للعقيدة الصلبة والإرادة القوية والثقة في الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فإذا أردنا أن يحول الله أحوالنا إلى الأفضل والأصلح في كل مجالات الحياة فعلينا أن نغير من أنفسنا بحسن التوكل على الله (عز وجل) واللجوء إليه ، وأن نعمل ونكيد ، وأن نتحول من الهدم إلى البناء ، ومن البطالة والكسل إلى مزيد من العمل والإنتاج ، ولنتحول من التشدد والغلو إلى السماحة واليسر ، ومن الجمود والتقليد إلى التأمل والتفكير ، لأن الله (عز وجل) يقول: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} .

نسأل الله العلي العظيم أن يجعلنا من المقبولين في هذا الشهر الكريم ، وأن يصلح ذات بيننا ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل .